# لماذا نستسلم لاختراق العقول؟

**تاريخ النشر :٩ أغسطس ٢٠١٥**

**بقلم: د. زكريا خنجي**

**اعتقدت أنني أنهيت موضوع «هندسة المجتمعات وفن اختراق العقول» وذلك بعد كتابة مقال «الفضائيات العربية واختراق العقول»، ولكن اتصل بي عدة أشخاص يستفسرون عن الأسباب التي تدعو الإنسان- أيًا كان - لقبوله ورضاه لاختراق عقله، لماذا نرضى بل نستسلم لاختراق عقولنا من قبل أطراف أيًا كانت ؟**

**عندما سمعت وجهات نظرهم، أعدت التفكير وعدت الى قراءة المقالات التي نشرت، فوجدت أن السؤال فعلاً مشروع، لماذا نستسلم لاختراق العقول، ربما على الرغم من معرفتنا بذلك. فقمت بعملية بحث طويلة للإجابة عن هذا السؤال، فكانت النتيجة هذا المقال.**

**وجدنا أنه يصعب حصر كل الأسباب التي تؤدي إلى الاستسلام لزراعة العقول واختراقها، فقد وجدنا وسائل كثيرة يمكن ممارستها بطريقة أو بأخرى، بعضها بالترغيب وبعضها بالترهيب، بعضها تحدث أمام أعين الجمهور ورضاه ومعرفته وبعضها تحدث في غفلة من الجمهور، إلا أنها كلها تهدف إلى التحكم في عقول البشر، سواء بصورة إيجابية أو سلبية. وسنحاول أن نستعرض أهم الوسائل والطرق التي تستخدم لزراعة الأفكار واختراق العقول.**

## أولاً: الدين

**لا يوجد تعريف واضح ومحدد وثابت لمصطلح «الدين»، فهذا المصطلح شأنه شأن العديد من المصطلحات الإنسانية التي عادة ما تخضع للأهواء والتخصصات وأفكار من يضع تعريفا للمصطلح، فعلماء الاجتماع وعلماء الإنسانيات ينظرون إلى الدين على انه مجموعة مجردة من القيم والمُثل أو الخبرات التي تتطور ضمن المنظومة الثقافية للجماعة البشرية، فالدين البدائي كان من الصعب تمييزه بنظرهم عن العادات الاجتماعية الثقافية التي تستقر في المجتمع لتشكل البُعد الروحي له.**

**ومن وجهة نظر علماء الدين، فإن الدين لا يمكن اختصاره بمظاهره الاجتماعية والثقافية الجماعية التي لا تشكل إلا مظاهر ناتجة من الدين وليس الدين أساسًا، فالدين بالنسبة اليهم هو الوعي والإدراك للمقدس، وهو إحساس بأن الوجود والعالم تم إيجاده بشكل غير طبيعي عن طريق ذات فوق الطبيعية تدعى الإله أو الخالق أو الرب.**

**وهذه القوة فوق الطبيعية استغلت بصورة كبيرة من أجل زرع الكثير من الأفكار غير الطبيعية، ففي المجتمعات الوثنية زين رجال الدين - وأنا هنا أكرر أنهم رجال دين وليسوا علماء الدين - عبادة النار وعباد النجوم وعبادة الشياطين وما إلى ذلك، من أجل الحصول على مكاسب شخصية لهم، سواء في السلطة والنفوذ أو المال أو أي شيء آخر.**

**فماذا يمكن أن نعتقد برجل دين يمنح البركة ومفاتيح الجنة لأتباعه من أجل خوض معارك وحروب من أجل التوسع في سلطاتهم، وماذا نعتقد برجل دين يطلب من أتباعه السير حافيًا على الجمر المشتعل أو التمرغ في الأوحال والبراز من أجل تطهير النفس والبدن، ماذا نعتقد برجل دين زرع فكرة جلد النفس والتطبير في النفوس من أجل التطهير من الخطيئة، وكم قضت فكرة شعب الله المختار على أحلام وطموحات شعوب كان من الممكن أن تعيش في تواؤم وسلام، وما تحركت جيوش أوروبا في الحروب الصليبية إلا باسم الدين، وربما أمور كثيرة لا نريد الإتيان بها.**

**ومن المعروف أن الدين والاعتقاد بقوة عظمى أو رب أو خالق جزء مهم من احتياجات الإنسان الأساسية التي لا يمكن التخلي عنها، وحتى الملحد الذي يدعي أنه لا يؤمن برب نجده يؤمن، وربما من غير أن يعرف أو من غير أن يعترف، فشعور الإنسان بالضعف وعدم الأمان يولد لديه شعور دائم بالحاجة إلى وجود خالق، وحتى فرعون موسى الذي ادعى الألوهية آمن بالقوة العظمى في اللحظة التي واجه بها الموت.**

**فالدين وسيلة خطيرة إذا استغلت لزراعة الأفكار في العقول، حيث تكون وسيلة سلبية إن استغلت لتدمير وتحطيم ذات الإنسان والبشرية وإشعال الحروب والفتن، ولكنها في المقابل تكون وسيلة إيجابية إن استغلت لزراعة الأفكار في العقول من أجل خير البشرية، كما جاء به المصطفى ﷺ.**

## ثانيًا: الجنس والمرأة

لا تعد الشهوة الجنسية من أهم الشهوات التي تتملك الإنسان فهي ليست كتناول الغذاء والبقاء حيًا، ولكنها تعد من أقوى الشهوات التي يمكن أن تتملك الإنسان وتسّيره وهو معصوب العينين مسلوب الإرادة لأداء أمور قد يعجز في الأوضاع الطبيعية عن حتى التفكير فيها.

ولا نريد أن نذكر وقائع تاريخية، وإنما كم مرة استغلت المرأة من قبل جهات وحكومات لإشعال الحروب والفتن بين الشعوب؟ كم حاكم تنازل عن عرشه وخان وطنه من أجل امرأة ليست على دينه وفكره؟ لماذا تركز الإعلانات التجارية المذاعة من الفضائيات على جسد المرأة وخاصة منطقة الثديين والأرداف؟ والغريب أن جسد المرأة يستغل حتى في الإعلانات التجارية التي ليست لها علاقة هي بها. وربما قال أحدهم إن استغلال الرجال للمرأة من أجل المتع الشخصية في القرون الماضية لم يكن ممنهجًا أو تابعًا لفكر استغلال العقول، ولكن للأسف الحقيقة تقول عكس ذلك، فلم يكتف الرجل باستغلال المرأة في تلك العقود فقط، بل إنه استطاع أن يرسخ فكرًا ويزرعها في أعماق الأدمغة البشرية أنها سلعة يمكن أن تستغل متى شاء، فهذا الفيلسوف الفرنسي «جان جاك روسو» قد قال في كتابه الشهير (اميل): «إن المرأة قد خلقت لمتعة الرجل»، فهو يرى أن وظيفتها في الحياة أن تخدم الرجل وتمتعه وتسهر على راحته منذ مولده حتى نهاية حياته، فهذه رسالتها الأبدية ويجب أن تحرص على الوفاء بها. ولم يكن روسو بدعًا بين الفلاسفة، فقد سبقه إلى ذلك الفيلسوف اليوناني أرسطو الذى أشار إلى أن الأنثى «ذكر مشوه».

هذا التفكير وهذه العقليات هي التي حولت صورة العاهرة أو الجارية إلى نجمة أفلام، فبدلاً من أن تباع الجواري في أسواق النخاسة غدت تعرض اليوم في مسابقات الجمال وعالم الموضة، فتتعرى لترتقي وتحصل على الجوائز الدولية أو التقديرات المادية والأدبية لأنها أمتعت الرجال بمواهبها.

ومن الأمثلة الشهيرة لاستغلال جسد المرأة، أنه منذ عدة سنوات قامت شركة اتصالات أمريكية متعسرة في بيع كروت الشحن الخاصة بها، فقامت بالتعاقد مع عارضة الأزياء الشهيرة كي تضع تشكيلة مختلفة من صورها بملابس البحر على ظهر كل كارت شحن، الأمر الذى رفع مبيعات الشركة، لأن الشباب باتوا يجمعون تلك

**الكروت. وكذلك من الأمثلة الشهير والقريبة ما قامت به شركة الدعاية والاعلان أمريكية عام 2005 من استغلال مؤخرات الفتيات الجميلات لتكون لوحات للدعاية لاحد المطاعم في نيويورك، الأمر الذى جعل من هذه الشركة واحدة من أشهر الشركات في الولايات المتحدة.**

**ثالثًا: المال**

**لقد جُبلت النفوس البشرية على حب المال، قال تعالى: «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا» (سورة الفجر)، كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»، وكذلك وروى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال وطول العمر».**

**فالمال وحب المال وبكل بساطة يعد فطرة بشرية وحب امتلاك وشهوة لا يقدر الإنسان أن يتحكم فيها، فمهما كان الإنسان غنيًا فإنه يرغب في غنى أكثر، وهكذا، حتى يصبح هاجس جمع المال وتكديسه جزءا من كيان الإنسان، شاء ذلك أم أبى. فكم من إنسان باع وطنه، وخان عرضه وأهله من أجل حفنة من الدنانير؟ كم من إنسان باع عقله وجسده للشيطان - كما يقال - يفعل بهما ما يشاء من أجل رصيد من البنك؟ كم من إنسان باع مبادئه وأفكار وحتى عقيدته من أجل تلك الدنانير اللامعة التي تخطف الأبصار؟ اسألوا التاريخ يمكن أن يجيبكم.**

**رابعًا: الضغط والإرهاب**

**وإن لم تستطع القوى أيًا كانت أن تستغل كل الاحتياجات البشرية لزراعة الأفكار واختراق العقول، فإنها وبكل ما لديها من قوة أرضية تحاول أن تقتحم عليك منزلك ووطنك لتسخرك لأفكارها ورغباتها، كما فعل الاتحاد السوفيتي والقوى الاستعمارية عندما قامت باحتلال الدول الإسلامية، ولكن تعد هذه الوسيلة من أضعف الوسائل، لأن الشعوب المضطهدة تقاوم أي فكرة وأي توجه بكل ما أوتيت من قوة، وربما يشهد على ذلك كل الدول التي تحررت من الاتحاد السوفيتي بعد سقوطه.**

**<u>الخلاصة:</u> بصورة عامة، ما تم ذكره ما هو إلا غيض من فيض، فعادة ما يتم استغلال حاجيات الإنسان الاساسية، وربما الاساسية التي لا يمكن أن يعيش من غيرها أو التي يحبها حبًا جمًا، لذلك وبعد هنيهة من الزمن نجد ان الإنسان وببساطة يسلم عقله لمن يدفع أكثر أو من يوفر احتياجاته بصورة أفضل وأكثر، ويصبح مثل المدمن على المخدرات، فكلما أدمن أكثر أوغل في المستنقع بصورة أكبر، وربما بعد عدة سنوات يجد نفسه أنه أصبح لا حول له ولا قوة.**

**عندئذ تكون الفكرة قد اينعت والشجرة كبرت والثمار غدت جاهزة للقطف، وأنه - أي الإنسان - أصبح عبدًا لزارع الفكرة لا يستطيع الفكاك منها حتى إن رغب.**